إيديولوجيا مناهضة الاستعمار في تاريخ الحركات الوطنية المغاربية

د/ بن صغير عبد العظيم
كلية الحقوق والعلوم السياسية
جامعة بسكرة

الملخّــص:

سنحاول في هذه المقالة البحث عن طبيعة الايدولوجيا التي أطرت العمل الوطني ألمغاربي في مقابل الايدولوجيا التي كرسها الاستعمار، وحاول من خلالها طمس الهوية المغاربية بكل مكوناتها الثقافية والدينية واللغوية، وكيف استطاعت الذات المغاربية أن تنطلق من المحافظة علي الأنا المشترك، في مواجهة الاختراق الإيديولوجي الاستعماري.

وكيف ساهمت أيديولوجيا الاحتلال، في توتير الوجدان المغاربي واستنهاض الوعي الوطني بضرورة العمل المشترك والتنسيق الميداني والفكري .

Summary :

We tray in This article to search on the nature of the ideology that mad the national magrebin work through the ideology; that the colonization consecrated, and trayed through it to over and the magrebin identity with all its cultural, religious and linguistic contents. And how the magrebin self could started from keeping on the collective I, to front the colonial ideological.

And colonial ideology; participated and tensed the magrebin existence and stand up the national, consciences through the necessary. Collectives work; and the intellectual. And practical coordination.

تمهـــــــيد:

تبحث هذه المقالة على وجود علاقة بين طرفي نقيض أو علاقة بين قوتين متناقضتين (قوة الفعل – وردة الفعل)، فعلى الطرف الأول الاستعمار كقوة مقتحمة داهمة وافدة عملت على اختراق الإنسان والأرض والزمان، بمنهجية عسكرية وفكرية وإيديولوجية الهدف منها هو نسف الشخصية المغاربية والقضاء على الهوية بكل مكوناتها (الدينية، اللغوية، الثقافية)، والطرف الثاني المستقبل لهذه القوة الوافدة (الحركات الوطنية المغاربية) وحسب القانون الفيزيائي فالطرف المستقبل للفعل لا يبقى ساكنا لايفعل شيئا وإنما سينهض مدافعا عن ذاته وأرضه وعرضه، وعليه سوف نبني تحليلنا للمجهود الإيديولوجي للحركات الوطنية المغاربية في فترة الاستعمار معتمدين على مقاربة التحدي والاستجابة لسمير أمين.

على اعتبار أن الاستعمار يتحدى المنطقة المغاربية في ذاتيتها وهويتها وتراثها ودينها واستجابة لهذا التحدي عملت قوى العمل الوطني المغاربي الدفاع عن كيانها وصيانة هويتها التي تعرضت للاختراق، والمحافظة على نسيجها الاجتماعي الذي تعرض للانهيار وعليه فقد ظهر المغرب خلال فترة الاستعمار مدافعا لا مبادرا .

فجدلية " الاستعمار – والنضال الوطني " تميزت بخصوصيات معينة في الأقطار المغاربية، مقارنة بالنضال الوطني ضد الاستعمار في دول المشرق الغربي. من هذه الخصوصيات: أن الحركات الوطنية المغاربية كانت مقتنعة بالتنسيق والعمل المشترك ووحدوية الخطاب السياسي في مواجهة الاستعمار حتى في أشد أوقات المطالبة بالاستقلال والتحرر وتأسيس الدولة القطرية كانت آليات العمل ألمغاربي المشترك لم تتوقف، وأحسن مثال ذلك مؤتمر طنجة عام 1958 رغم انعقاده بعد استقلال كل من المغرب وتونس ولكن الأوراق التي نوقشت فيه والخطابات التي ألقيت كانت تؤكد على أن وحدة المغرب العربي هي ضرورة تاريخية وجغرافية وسياسية .

نعم وحدة المغرب العربي هي ضرورة ولكن للأسف هذه الضرورة معلقة على شرط توفر إرادة جماعية مشتركة للنخب السياسية القائدة في الأقطار الثلاثة، وبعد تسوية كل الملفات العالقة بصراحة شديدة وإنكار الذات، وعدم الإفراط في تغليب المصالح

القطرية الضيقة، بدون ذلك في تصوري على الأقل تبقى مسألة الوحدة والتكامل ألمغاربي بعيدة المنال.

وبالرجوع للموضوع نقول بأن الاستعمار كقوة مخترقة للكيان المغاربي، اعتمد في تطبيق سياسته على أيديولوجيا تخريب الإنسان واختراق قيمه وثقافته، وإنكار المغرب العربي كقيمة ثقافية وحضارية ودينية، باختصار تمحورت إيديولوجيا الاحتلال وركزت برنامج عملها على (نفي الهوية المغاربية) بكل مقوماتها (الدين، اللغة، الثقافة)، واستخدمت في تطبيق هذه الإيديولوجية مجموعة من السياسات المنهجية والمنظمة تصب جميعها في خانة القضاء على الهوية وإنكار الشخصية المغاربية كقيمة .

منطق الاستعمار وسياساته:

عمد الاستعمار في المغرب العربي إلى تبني أيديولوجيا تقوم علي أساس فرض مجموعة من السياسات والنظريات التي اخترقت الذات المغاربية والهوية العربية والإسلامية من خلال ترسيخ النظريات التالية :

1- ترسيخ نظرية الإدماج: هذه النظرية التي سادت في الجزائر بشكل اخص، والتي تعني تحويل المواطن الجزائري معنويا وماديا ليصبح شبيها بالفرنسيين، من خلال طمس شخصيته وهويته وخصوصيته، وإنكارها كقيمة واستبدالها بالثقافة الفرنسية الغربية(1).

2- ترسيخ نظرية التجنيس: والتي سادت في تونس من خلال تبني قانون"مورينو " الخاص باكتساب الجنسية الفرنسية(2).

3- نظرية الظهير البربري : والتي سادت في المغرب من خلال فصل العرب عن البربر (الامازيغ)، واعتبار الرجل البربري طيب ومتسامح ويمكن التفاهم معه، أما العنصر العربي فهو متعصب وشرير وضال، وهي سياسة مقصودة لتفضيل البربر عن العرب وقابلية اذماجهم في المجتمع الفرنسي(3).

4- نظرية التنصير: التي ظهرت بقوة في الأقطار الثلاث دون استثناء وعلى سبيل المثال لا الحصر يشير الكاردينال "لافيجري" بقوله إن: "احتلال الجزائر لفرنسا هي رسالة الإنجيل ليخلصها من القرآن" ويقول: "علينا أن نخلص هذا الشعب، ونحرره من

قرآنه، ويجب أن نهتم بتنشئة الأطفال على مبادئ غير التي شب عليها أجدادهم ...إن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل "(4)

5- نظرية التمدين: عمل الاستعمار في تنفيذ برنامجه الإيديولوجي على تمرير رسالة خاطئة للمجتمعات المغاربية على أنها مجتمعات متخلفة تقليدية في نمط عيشها وفي أساليب حياتها، فالاستعمار جاء من اجل إحلال الحداثة وتحقيق المدنية وتطوير أنماط العيش، وتحقيق الارتقاء الحضاري(5)، فهذه السياسات والإجراءات الاستعمارية التي طبقها الاحتلال كشفت عن إيديولوجيته، بمعلي تلك القيم والأفكار والمعتقدات التي شكلت نسقه الفكري، واقتنع بـــها كأداة للسيطرة على الإنسان والأرض والزمن(6). هذا عن إيديولوجية الاستعمار التي شكلت بالفعل برنامج عمل فعلي،يريد إفراغ الكيان ألمغاربي من محتوياته القيمية الحضارية والتراثية، وملئه بالقيم الفرنسية الغربية،في محاولة لبناء إنسان معتدل يقدر مجهود الاستعمار في التنمية والخلق والإبداع. أما عن المجهود الإيديولوجي للحركات الوطنية المغاربية التي تصدت لايدولوجيا الاستعمار بأشكال مختلفة. سوف يكون التركيز هنا على طبيعة الإيديولوجيات التي أطرت العمل الوطني ألمغاربي، وماهي المرجعيات الفكرية التي تأثرت بها النخب الوطنية في الدول المغاربية.؟

إن الحديث عن طبيعة المجهود الإيديولوجي الذي اطر العمل الوطني المغاربي خلال فترة الاستعمار طرح أمامنا إشكاليتين على المستوى المنهجي:

أولا: إشكالية النمذجة : بمعنى هل نحن أمام نماذج إيديولوجية صرفة وخالصة على أساسها يمكن تصنيف مختلف أطراف النضال الوطني ألمغاربي. وهنا يمكن الحديث عن يمين، يسار، وسط، ليبرالي، إسلامي...الخ، بمعنى إن إشكالية النمذجة طرحت لنا صعوبة في تحديد ماهية الايدولوجيا المناسبة والفاعلة والقادرة على تأْطير العمل الوطني ألمغاربي، والانطـــــلاق بـــه نحو التحرر والاستقلال. وعليه فقد ترتب على عدم وجود إيديولوجيات صرفة خالصة، إن النخب الوطنية المغاربية حاولت المزج بين أكثر من إيديولوجية واحدة، ومحاولة الأخذ من مصادر مختلفة ،بحيث تكون لدينا مركب جديد من الإيديولوجيات(7)، بالرغم من إن التوفيق بين الإيديولوجيات ليس عيبا في حد ذاته، ولكن

المشكلة هو الجمع بين أخلاط وعناصر تستعصي بطبيعتها على التجانس، كان تجمع بين السلفية والليبرالية مثلا، في قالب إيديولوجي واحد .

ثانيا : إشكالية التحقيب: بمعني هل يمكن الحديث عن تواريخ مفصلية أو فترات تاريخية مشتركة حكمت صيرورة العمل الوطني ألمغاربي، وبالتالي يتم الانتقال التدريجي والتحول في طبيعة النضال الوطني في مقاومة الاستعمار، في الأقطار الثلاث بنفس المستوي في التصور الفكري والعمل الميداني بمعني هل هناك تواريخ معينة، تحدد التحول في نمط النضال الوطني ألمغاربي بشكل واحد وموحد؟ أم انه مختلف بحسب كل قطر ؟

استنهاض الوعي الوطني ألمغاربي :

لما كانت إيديولوجيا الاستعمار هي ضرب عمق الهوية المغاربية، في مقوماتها (الدينية، اللغوية، الثقافية) فلم يكن بمقدور الحركات الوطنية المغاربية إلا آن تعتمد السلاح نفسه في مجابهة القوي الاستعمارية بمعني محاولة استخدام المجال الرمزي نفسه(8)، من دين ولغة وتراث وتاريخ مشترك، في بناء توجهاتها السياسية المناهضة للاستعمار، فكان محور المقاومة والنضال الوطني ضد غطرسة الاستعمار، هو إثارة العواطف وتوتير الوجدان ألمغاربي، واستنهاض الوعي تجاه القيم الرمزية للشخصية المغاربية، وكانت هذه هي القاعدة التي تأسست عليها خطابات النخب القائدة للعمل الوطني ألمغاربي. إن الدفاع عن الهوية قد شكل الأساس الأيديولوجي والنضالي الذي على أرضيته تشكلت النواة الأولى للحركات الوطنية بالدول الثلاث، مدافعة أولا عن سيادتها الوطنية ومطالبة بالإصلاح في إطار الدولة الاستعمارية وداعية إلى استحضار تراثها المشترك وانتمائها للمشروعية العربية والإسلامية،وذلك من اجل بلورة وعي جماعي بضرورة التنسيق والوحدة لمقاومة الأخر (الاستعمار)، وصيانة الأنا " الهوية المغاربية ".

من خلال ما سبق نحاول طرح التساؤل الإشكالي التالي: أي إيديولوجية سوف تؤطر العمل الوطني ألمغاربي في مواجهة إيديولوجيا الاستعمار وسياساته المختلفة؟ وهل ساهم المجهود الإيديولوجي للحركات السياسية المغاربية، في تعميق العمل المشترك،

وتنسيق الجهود في مقاومة الاستعمار، الذي كان يستهدف القضاء على مقومات الوحدة (فرق تسد).

للإجابة على هذا السؤال فقد ظهرت العديد من الإيديولوجيات الوطنية المغاربية مستندة إلى مرجعيات ومنطلقات مختلفة حاولت تاطير العمل الوطني ألمغاربي، بداية من المطالبة بالإصلاح في إطار دولة الاحتلال إلى المطالبة بالاستقلال وتأسيس الدولة الوطنية ،وقد تمثلت هذه الإيديولوجيات في الأتي:

أولا : الإيديولوجيات المستندة للدين: لقد تكون وعي بعض النخب السياسية بالظاهرة الاستعمارية وتم تصور وإدراك الاستعمار على انه "عدو كافر"،وتم توظيف التراث الإسلامي ورمزيته في مواجهة ومقاومة الاستعمار، وأصبحت الخطابات والشعارات المناهضة والرافضة لممارسات الاستعمار–تنادي بضرورة " الجهاد في سبيل الله " كسلاح مركزي لاسترجاع عزة الإسلام (تحقيق الاستقلال)، ودحر أركان الكفر (نهاية الاستعمار).(9)

إن هذا التوظيف السياسي لفكرة"العدو الكافر"أي الاستعمار وتبسيط الإدراك بالظاهرة الاستعمارية، خلق جوا عاما رافضا في أوساط الأهالي وملتفا حول نخبه، وواعيا بدوره في نصرة الإسلام وعدالة قضيته. واستخدم مفهوم الجهاد من اجل التعبئة الإيديولوجية لتوسيع دائرة نفوذ الإسلام، ومن اجل استنهاض الهمم للدفاع عن عزة الإسلام وصيانة سيادة الدول المنتمية إليه وأصبح "الجهاد" هو الموضوع الأكثر نجاعة في توتير وجدان المغاربة، وإيقاظ وعيهم بضرورة مقاومة الاستعمار، ومن الأمثلة على ذلك: دعاة الإصلاح الديني الذين تأثروا بكتابات الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا بالمشرق العربي، كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس والإبراهيمي والطيب ألعقبي وتوفيق المدني، وغيرهم .

وفي المغرب تأثر كل من علال الفاسي، وأبي شعيب الدكالي ومحمد بالعربي العلوي بالفكر الديني الإصلاحي، أما في تونس فقد تأثر بنفس الفكر نخبة من المثقفين أمثال الشيخ محمد السنوسي صاحب مجلة العروة الوثقى وخير الدين وعلي بوشوشة ومحمد العربي رزوق نوغيرهم.

وعليه فقد طرحت الحركات الوطنية المغاربية المتأثرة بقضية الإصلاح الديني واقتنعت به كبديل لصياغة الهوية والحفاظ على الذات المغاربية ومقاومة الاستعمار، واستخدمت إيديولوجيا الإصلاح الديني في تعبئة الجماهير وتنشئتهم وتثقيفهم سياسيا وفكريا ودينيا ومحاولة ربطهم بمرجعيتهم الدينية والثقافية واللغوية، التي تأثرت بفعل إيديولوجيا الاستعمار، وعليه فان المجهود الإيديولوجي للجيل الاول للحركة الوطنية المغاربية كان يركز بالأساس على إصلاح الدين وتنقية الأجواء الثقافية من ممارسات التغريب والتشويه، وهذا في إطار صيانة الهوية والدفاع عنها كطريق لمقاومة الاستعمار(10).

2- الايدولوجيا المستندة لليبرالية: يجب التذكير في البداية على تواضع مفهوم الليبرالية كايدولوجيا استندت عليها النخب السياسية في عملها الوطني دفاعا عن الهوية المغاربية ومناهضة للاستعمار، فكرا وممارسة مقارنة بالدور الذي لعبته التيارات الليبرالية التي عرفها المشرق العربي منذ القرن التاسع عشر. فالنخب الليبرالية حاولت صياغة خطابها السياسي والإيديولوجي مستندة على ازدواجية المرجعية، فهي من جهة منبهرة بمظاهر التمدن في التجربة الحضارية الأوروبية بصفة عامة وفرنسا على وجه الخصوص بحكم مسارها التعليمي وثقافتها السياسية، وهي من جهة أخرى منشدة إلى ماضيها الحضاري (العربي الإسلامي) مدافعة عن قيمه ومقوماته.

ومن نماذج هذه النخب الليبرالية نجد: الحبيب بورقيبة بتونس الذي درس بثانوية كارنو(carnot) وتخرج من كلية الحقوق بباريس. ومحمد حسن ألوزاني بالمغرب الذي درس بثانوية كورو (couraud) بالرباط وبعدها معهد العلوم السياسية بباريس. والذي أسس (حزب الحركة القومية) سنة1937، بعد الانشقاق الذي حصل في الكتلة الوطنية بسبب اختلاف التكوين الثقافي والتوجه السياسي والانتماء الطبقي بين زعماء الكتلة الوطنية خاصة بين علال الفاسي ومحمد الحسن ألوزاني(11). ولحبيب بورقيبة أيضا أسس الحزب الحر الدستوري الجديد عام 1934، بعد انشقاقه عن الحزب القديم بزعامة الشيخ عبد العزيز الثعالبي، بمعنى إحلال القيادة المتعلمة في المدارس العصرية المنفـــتحة

على مكونات الثقافة الغربية، مكان النخب المتخرجة من جامع الزيتونة والمرتبطة بالثقافة العربية الإسلامية.

– الإيديولوجية المستندة على البعد الإقليمي (الجهوي): إن هذه الإيديولوجية لا تنكر الطابع القطري (الوطني) للحركات الوطنية.المغاربية ولكنها توظف البعد الإقليمي (الجهوي) من خلال التركيز على المقومات المشتركة المكونة للشخصية المغاربية، وان الشعوب المغاربية في أقطارها الثلاث تعاني من نفس السياسات الاستعمارية من اندماج وتجنيس وتمييز عرقي (السياسة البربرية).

ويعتبر حزب نجم شمال إفريقيا بزعامة مصالي الحاج الذي تأسس عام 1926، أول تجربة للعمل الوطني ألمغاربي الذي يعتمد على تفعيل وترسيخ التنسيق ألمغاربي المشترك، بمرجعية إقليمية تضع دول المغرب العربي في (خانة الجهود المشتركة) ولأول مرة بعد سقوط دولة الموحدين وتفكك دول المغرب العربي وذالك من اجل مناهضة إيديولوجيا الاحتلال وسياسته الهادمة للهوية (12) وعندما نقرا أول نص لحزب نجم شمال إفريقيا عند التأسيس وهو ما يؤكد انتماؤه الإقليمي (الجهوي)، وليس القطري فقط، بالرغم من مظهره الجزائري كتنظيم " فهو جمعية لمسلمي المغرب والجزائر وتونس، تهدف إلى تدريب مسلمي الشمال الإفريقي على الحياة في فرنسا والتنديد بجميع المظالم أمام الرأي، وان الجمعية تستلهم أساسها من المبدأ التالي: " إن مسلمي الشمال الإفريقي لا يقومون بواجباتهم فقط بل أكثر من واجباتهم ولهذا يطالبون بكامل حقوقهم." (13)

وكخلاصة يظهر من تجربة " حزب نجم شمال إفريقيا " (1926–1937) واحدة من أهم المحطات المهمة في صيرورة العمل المشترك والتنسيق بين الحركات الوطنية المغاربية في الدول الثلاث، (تونس، الجزائر، المغرب)، والدور الذي لعبته في تكوين الوعي ألمغاربي المشترك تجاه الأخر (الاستعمار). دفاعا عن الهوية، وفيما بعد المطالبة بالاستقلال والتحرر.

وفي الجانب الآخر تأسست في المغرب " جمعية شمال إفريقيا المسلمين" سنة (1927). ولعبها دور محوري في مجال الدفاع عن الهوية المغاربية ومقومات شخصيتهم التاريخية وكانت قضيتها المركزية. هي النضال الوطني وتنمية الوعي بالذات (الأنا)،

وتركيزها على سلاح التعليم والتثقيف. وهو نفسه السلاح الذي استخدمته استراتيجيا الاستعمار في طمس الوعي وسياسة التجهيل المقصودة. باعتماد سياسة تعليم ترسخ قيم التغريب " والاوربة" والانسلاخ عن مقومات الانتماء العربي –الإسلامي .

وقد ساهم في ظهور هذه الجمعية الطلابية، الموجات المكثفة للبعثات الطلابية نحو فرنسا والمشرق العربي من طرف الدول الثلاث. مما ساعد الطلبة المغاربة من تكثيف اتصالاتهم ضمن اطر مشتركة وزاد التلاحم الفكري والتقارب الإيديولوجي من تعميق جهود العمل الوطني المشترك، ضمن فضاء مغاربي يضمن تجسيد البعد الجهوي (الإقليمي) للنضال ألمغاربي الوطني المشترك(14). وذلك من خلال مؤتمرها الاول المنعقد بتونس في أوت 1931. وبتداخل الثقافي (التعليمي) بالسياسي،ستصبح قضية الاستعمار والانخراط في ديناميات النضال الوطني، منطلق عمل الجمعية. وذلك باعتمادها التعليم موضوعا محوريا للتوحيد والدعوة إلى العمل ألمغاربي المشترك.

الهـــوامـــش :

(1) عبد الرحمان بن براهيم، الكفاح القومي والسياسي الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ،ط1، 1984، ص 121.

(2) المرجع نفسه، ص132.

(3) امحمد المالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، : مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط2، 1994، ص 180.

(4) عبد الرحمان بن براهيم، مرجع سابق، ص133.

(5) عبد الله شريط، مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1986، ص108.

(6) علي الدين هلال، نيفين مسعد، النظم السياسية العربية قضايا الاستمرار والتغير، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط3، 2005، ص 152.

(7)المرجع نفسه، ص 153.

(8) أمحمد المالكي، المرجع نفسه، ص 182.

(9) امحمد المالكي، مرجع سابق، ص 184.

(10) المرجع نفسه، ص 190.

(11) عبد الرحمان بن براهيم، مرجع سابق، ص 412.

(12) عبد الله شريط، المرجع السابق، ص 111.

(13) أمحمد الماتكي، المرجع السابق، ص172.

(14)الطيب ابشر الطيب، أطوار مناهضة الاستعمار في تاريخ الحركات الوطنية في إفريقيا، مجلة دراسات استراتيجيه، العدد 15، شتاء 1998، ص68.